البَابُ الثَّالِثُ

المجتمع المثالى في الفلسفة الحديثة

الفصل الأول : عوامل التوجيه الاجتماعي في الفلسفة الحديثة.
الفصل الثاني : طلائع الفكر الاجتماعي.
الفصل الثالث : جان جاك روسو والعقد الاجتماعي.
الفصل الرابع : كارل ماركس والمجتمع الشيوعي.
الفصل الخامس: فردريك نيتشه والإنسان الأعلى.

الفَصْل الأوّل

عوامل التوجيه الاجتماعي فى الفلسفة الحديثة

أولاً : أثر الحضارة الإسلامية
- الأندلس.
- صقلية وجنوب إيطاليا.
- الرحلات إلى الشرق.
- الحروب الصليبية.

ثانياً : عصر النهضة واتجاهه الإنسانى.
- الكشوف الجغرافية.
- الإصلاح الدينى.
- تقدم العلوم وازدهار الفنون.

وقفت الفلسفة الحديثة على أعتاب تاريخ عتيق، جاوز عشرين قرناً من الزمان ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن السابع عشر الميلادي.

وقد توزعت ملامح تلك الحقبة المتطاولة على عدة أطوار:

فالفلسفة اليونانية بدأت بالمدارس الطبيعية الأولى على أيدي طاليس وانكمسندر وانكسمينس، وبلغت قمتها على أيدي عمالقة الفكر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو، ثم تحولت المدارس الفلسفية بعد أرسطو إلى منابر خاصة تدور أبحاثها حول الأخلاق الشخصية وسعادة الفرد بعد أن كانت تتطلع إلى علياء الحقيقة في الكون وما وراءه.

وتبدأ فلسفة العصور الوسطى بإغلاق مدارس أثينا بقرار من الأمبراطور البيزنطي «جستنيان» عام ٥٢٩م، وهنا وقفت عقائد الرهبان في مواجهة الفلسفة ألفاً من الأعوام وتمكنت من إخضاعها للسيطرة الكنيسة فلم تحرز الفلسفة أي تقدم حقيقي.

ومنذ القرن الرابع عشر ظهرت بواكير حركة عقلية حمل لواءها جمع من العلماء والأدباء والفنانين، وصحبها تقدم علمي وكشف جغرافي وإصلاح ديني، في ثورية عارمة وحركة سريعة وجهد كبير كان بمثابة آلام المخاض لعصر الفلسفة الحديثة.

تلك الفلسفة التي تكاثرت مذاهبها، وتعددت نظرياتها فشملت الحياة وما وراءها والكون ونواميسه والإنسان ودخائله والمجتمع وظواهره والدولة ونظمها، وأثقلت كاهل المفكرين بثروتها الضخمة وتراثها الكبير.

ونحن لا نجد ظاهرة تستوعب ملامح تلك الفلسفة أقرب من دراسة «المجتمع المثالي» كظاهرة فلسفية تجلت في الفكر الحديث وجمعت ألوان النشاط الثقافي والسياسي والإقتصادي لعصر الفيلسوف وفكره.

وهذا ما يحتم علينا أن نبيّن روافدها الفكرية التي استقت منها، وجذورها التاريخية التي قامت عليها، والمؤثرات التي وجهت النظر إلى القيام بعبء تقديم أنماط للمدن الفاضلة والمجتمعات المثالية.

ولعل في العوامل التالية ما يبرز تلك الفكرة ويوضح ذلك الاتجاه.

* * *

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية

نبتت الحضارات الأولى في الشرق وأينعت في اليونان ثم عادت إلى حيث بدأت وقد توافر لها من أسباب البقاء وعوامل القوة ما جعلها أوسع انتشاراً وأعمق تأثيراً.

ذلك أنَّ الشرق قد نعم بالإسلام ديناً وبالقرآن شرعة ومنهاجاً، وحقق المسلمون أمجاداً كباراً في الفكر والثقافة، وفي الدولة والحكم. وعاشت في كنف الإسلام شعوب وحضارات صاغها في صورة جديدة قدمت للإنسانية نموذجاً فريداً لمجتمع مثالي يجمع بين طهر العقيدة وسموِّ النفس ونقاء الفكر وإخلاص العمل في تآلف عجيب عمارة للدنيا وزاداً للآخرة.

وقُدِّر للعالم الأوروبي أن يراقب عن كثب تلك الحضارة الإسلامية الرائعة في وقت كان يعيش عصوراً ـ اتفقت كلمة المؤرخين على تسميتها بالعصور المظلمة ـ.

وتمثلت جسور الاتصال فيما يلي:

١ ـ الأندلس:

وقد حكمها المسلمون من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وازدهرت فيها حضارة رائعة شملت جوانب الفكر والاقتصاد والعمران، واشتهرت بجامعات قرطبة وأشبيلية وغرناطة، وعلى المدخل

العام لجامعة غرناطة نقشت العبارة التالية[1]:

(يقوم استقرار العالم ونظامه على أربعة أسس: علم الحكماء وعدل الملوك وصلاة العابدين وبأس الشجعان).

وقد وفد إليها الطلاب من جميع أنحاء أوروبا، وكان لملوك الأندلس ولع باقتناء الكتب واصطفاء العلماء، وصادف لبَّ الحقيقة من قال:

(لقد كانت ساعة نحس تلك الساعة التي حل فيها الصليب محل الهلال على أبراج غرناطة).

٢ ـ صقلية وجنوب إيطاليا:

فتحها العرب في القرن التاسع الميلادي على أيدي حكام تونس ودام حكمهم إلى القرن الحادي عشر، حيث استولى النور منديون. إلّا أنَّ الأثر الإسلامي والملامح العربية ظلت بعد ذلك بقرون.

٣ ـ الرحلات إلى الشرق:

انتقل الغربيون إلى المشرق الإسلامي في رحلات متعدّدة طلباً للعلم أو سعياً للتجارة أو زيارة للأماكن المقدسة في فلسطين فجاوروا أهله وعاملوهم واستنشقوا عبير أخلاقهم.

٤ ـ الحروب الصليبية:

تجمعت أوروبا وراء صليب جاهل وحكم جائر تريد مواجهة الفكر الحر والدين الصحيح والحضارة الجادة في الشرق الإسلامي، واستمرت حملاتهم المسعورة قرنين من الزمان من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، وفي النهاية استطاع الشرق أن يكسر الصليب ويرد أهله على أعقابهم خاسرين.

وتطلع الأوروبيون عبر هذه الجسور إلى المجتمع الإسلامي، فرأوا

---

(١) الفكر الإسلامي منابعه وآثاره ترجمة د. أحمد شلبي ص ٩٢.

حركة عقلية زاهرة وتقدماً علمياً كبيراً وفضائل إنسانية راشدة: ذلك أن العصور الوسطى تقابل في التاريخ الإسلامي قمة النشاط الدؤوب في الترجمة إلى العربية وبناء الفلسفة الإسلامية، كما للمسلمين آثار علمية وحضارية في الطب والكيمياء والفلك والرياضة والجغرافيا.

وحرص الأوروبيون على دراسة تلك الحضارة، والتزود من ثمارها فنشطت الترجمات من المؤلفات العربية إلى اللاتينية وخاصة كتب ابن رشد التي بهرت عقولهم، وترجم كتاب «القانون» في الطب لابن سينا إلى اللغات اللاتينية والعبرية والإنجليزية، وظلت مباحثه أساس الدراسة الجامعية في فرنسا وإيطاليا قروناً متوالية. ويعتبر كتاب «الجبر والمقابلة» المرجع الأول للمؤلفين والمترجمين، ويعتبر صاحبه «الخوارزمي» واضع علم الجبر. وأكثر مصطلحات علم الفلك ما تزال محتفظة في كل اللغات الأوروبية بأصلها العربي كما أن كثيراً من النجوم ما يزال يطلق عليه الأسماء العربية. وتمثل الجغرافيا العربية حلقة هامة وأساسية في تطور علم الجغرافيا ومن روادها العالمين الأصطرخي والمسعودي، والإدريسي ذلك الشريف الذي صنع كرة سماوية وخريطة للعالم على شكل قرص وكلاهما من الفضة وقدمهما إلى روجر الثاني ملك صقلية.

ويعد جابر بن حيان عملاقاً كبيراً وأول من استحضر بعض الأحماض وعرف خواص بعض المركبات، كما ظل كتاب الرازي «الأسرار في الكيمياء» مرجعاً رئيسياً حتى القرن الرابع عشر الميلادي[1].

ولم يكتف الأوروبيون بالترجمات، بل زجوا بأبنائهم في خضم الحياة الإسلامية وبعثوا بهم إلى الجامعات، ومراكز الفكر الإسلامي في الأندلس وصقلية.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع:

١ ـ فضل العرب على أوروبا. زيجرد هونكية ترجمة د. فؤاد حسين علي.

٢ ـ العرب في أوروبا. علي حسني الخربوطلي.

ومن الواضح ـ كما يقول أحد المستشرقين[1]:

(إنَّ اليهود والمسيحيين استمتعوا في ظل الحكم الإسلامي بالتسامح الديني الذي لم تعرفه الأديان من قبل، وقد فتحت لهم أبواب الكليات والجامعات وكانوا يجيدون اللغة العربية، ويلبسون الزي الذي يلبسه المسلمون، وقد أتيح لهم في أثناء هذه الدراسة ـ بجانب الفائدة الفكرية ـ أن يتعرفوا على أخلاق المسلمين وأن يتحلوا بها).

وأخيراً أنشأ الأوروبيون الجامعات في بلادهم وجعلوا مناهجها دراسة الفلسفة الإسلامية والعلوم العربية، وعلى سبيل المثال جامعة نابلي التي شيدها الأمبراطور فردريك الثاني ملك روما الذي تلقى علومه على أيدي المعلمين العرب واتصل اتصالاً وثيقاً بالمسلمين في صقلية، وفي سوريا خلال الحروب الصليبية، فأصبح من المعجبين بثقافة المسلمين عامة وأفكار ابن رشد خاصة، وجعل هدف جامعته نشر العلوم والفلسفة الإسلامية بين الأوروبيين.

تلك لمحة يسيرة عن أثر الحضارة الإسلامية في العقلية الأوروبية، حيث أيقظتها من سباتها ووجهت فكرها إلى الكون الفسيح.

ومما لا شك فيه أن الفيلسوف الأوروبي قد بهره المجتمع الإسلامي بقيمه وحضارته الأمر الذي حدا به إلى أن يتمثل صورة جديدة لبيئته عسى أن تنهض وتسير في موكب الحضارة.

ولو أن موكب الفتوحات الإسلامية واصل المسيرة المؤمنة، وعبر الأندلس إلى فرنسا ـ في موقعة «بواتيه» أو بلاط الشهداء كما يسميها العرب لجاءت النهضة الأوروبية قبل أوانها بسبعة قرون.

ولما سجل التاريخ تلك الصحائف السوداء في تاريخ أوروبا على مذابح الصراع الطائفي ومحاكم التفتيش وجرائم الصليبيين النكراء.

---

(١) الفكر الإسلامي منابعه وآثاره ترجمة د. أحمد شلبي ص ١٧٤.

ثانياً: عصر النهضة واتجاهه الإنساني

تواضع المؤرخون على أن يطلقوا تعبير «عصر النهضة» عنواناً للفترة الواقعة بين القرن الرابع عشر الميلادي والقرن السابع عشر.

وقد أشرقت تلك النهضة من إيطاليا ثم واصلت حركتها إلى جميع أنحاء أوروبا، ولعل في الأسباب التي كمنت وراءها والآثار التي ترتبت عليها ما يوحي بآفاق سياسية جديدة، تدعو المفكرين لدراسة القوانين والنظم، ووضع المناهج والخطط لسائر شؤون الاجتماع والاقتصاد.

وتتلخص أهم العوامل فيما يلي:

أ ـ الكشوف الجغرافية:

قام البرتغاليون والأسبان بمغامرات بحرية كانت بواعثها مزيجاً من الأطماع التجارية والثأر من المسلمين وحب الاستطلاع، ومن أعلامها: «فاسكودي جاما» الذي اكتشف طريق الهند البحرية.

و «كريستوف كولمبس» الذي واصل رحلاته إلى الهند، حتى ألقت به المقادير على شواطىء أمريكا التي لم يعرفها إلى أن جاء «أمريكوس»، فأكد أنها أرض جديدة واقترح تسميتها باسمه فصارت «أمريكا»، وأول رحلة جرت حول العالم وأثبتت كروية الأرض، قام بها «ماجلان» البرتغالي عام ١٥١٩ واستمرت ثلاث سنوات.

وقد قلبت هذه الاكتشافات الأفكار السائدة، وأسست أمبراطوريات

استعمارية وتولدت معها علاقات عالمية، أدت إلى نتائج اقتصادية واجتماعية وفكرية خطيرة.

ب ـ الإصلاح الديني:

نشأت النصرانية رسالة إلهية بعث بها عيسى بن مريم عبد الله ورسوله لخلاص بني إسرائيل من مادياتهم المهلكة، ولإتمام الناموس الذي جاء به موسى عليه السلام.

ولكن كثيراً من الأحبار والرهبان بدلوا وحرفوا، ومنذ أن تبنى الأمبراطور الروماني قسطنطين (٣٢٤م) دعوة النصرانية، وهي تعاني من تعقيدات الفكر الوثني وطقوسه، وتعالت التساؤلات عن التثليث والتجسيد والخطيئة الأولى والتعميد والعشاء الرباني والقيامة... إلخ.

وفي القرن الخامس الميلادي تبلورت ثلاث فرق رئيسية هي: النسطورية واليعاقبة والملكانية، تجادل حول شخصية المسيح وطبيعتها.

وإلى هذا التمزق الديني الذي يشعر به النصراني تجاه عقيدته يضاف تمزق آخر هو علاقته بالسلطة الحاكمة، فالقاعدة المشهورة عندهم هي «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وأصبح الطابع المميز للفكر النصراني، هو القول بالازدواج في تنظيم المجتمع. فشؤون الروح والخلاص من اختصاص الكنيسة، وشؤون الدنيا والمحافظة على العدالة من اختصاص الدولة، وتعرَّف هذه العلاقة بنظرية السيفين أو السلطتين.

وبمرور الزمن نشأ صراع عنيف بين السلطة والكنيسة في محاولة للسيطرة من أحداهما على الأخرى، إلاّ أن التهديد الحقيقي للكنيسة بدأ بانحراف القائمين عليها، وتحول البابوات إلى أوغاد وفجار ـ على حد تعبير جورج سباين[1] وأصبحت المناصب الدينية في المزاد العلني، توزع بأساليب

---

(١) تطور الفكر السياسي جـ ٣ ص ٤٧٢ ترجمة د. راشد البراوي.

الدناءة، حتى كانت «ماروزيا» وهي ابنة أحد كبار موظفي القصر البابوي تعين بنفوذها بعض أصدقائها في مناصب البابوية، ومنهم البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ ـ ٩١١) ويبلغ من استهتارها أن عينت في هذا المنصب الديني ابنها غير الشرعي من سرجيوس هذا باسم البابا يوحنا الحادي عشر، كما عينت أحد أحفادها باسم «البابا يوحنا الثاني عشر» وكان صبياً في السادسة عشرة من عمره وهو البابا الذي اتهم بتعيين طفل في العاشرة من عمره في وظيفة أسقف[1].

وتتابع الفساد الديني وتوالى الإنحراف الخلقي، وتحكم رجال الكنيسة في عقول الناس وعقائدهم، واستحوذوا على اموالهم وامتهنوا أعراضهم وأهدروا دماءهم، حتى تنادى الناس جميعاً بالإصلاح الشامل فكانت الثورة الكبرى بقيادة «مارتن لوثر» عام ١٥١٧ زعيم البروتستانتية (ومعناها الاحتجاج ضد فكرة معينة) وقام بتعليق نظرياته الخمس والتسعين على باب كاتدرائية فيتنبرج بألمانيا..

وهي تنص على أن الناس جميعاً سواسية في الأمور المتعلقة باللاهوت، وأن كل إنسان على ظهر الأرض مسؤول عن إنقاذ روحه وله من كلمة الرب المسطرة في الكتاب المقدس ما يساعده على ذلك، وأن الإنسان يبرأ من الإثم بالإيمان وحده دون توسط من بابا أو غيره.

وإن كل بروتستانتي يحمل إنجيله في يده، وهو البابا بنفسه ولنفسه، وليس من حق الكنيسة أن تمنح أو تمنع الغفران الإلهي للناس، وليس الإنجيل حكراً على رجالها بل هو ملك للجميع.

وقد كان لحركة الإصلاح هذه أثر عميق في الجوانب الدينية والسياسية على السواء، وترتب عليها آثاراً مباشرة وغير مباشرة، فتحررت العقول، وسادت روح النقد، وأسفرت عن تأكيد لشرعية الحكومات المدنية

---

(١) معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى د. عبدة فراج ص ١٦٦.

وسيادة للدول القومية بدلاً من كنيسة عالمية يرأسها بابا روما. وفي ذلك كله ما ينمي روح البحث الاجتماعي والتحليل السياسي والتأمل الفلسفي.

جـ ـ تقدم العلوم وازدهار الفنون:

يعتبر عام ١٤٥٣م ـ وهو تاريخ فتح العثمانيين للقسطنطينية ـ فاتحة ظهور حركة إحياء الفنون والآداب القديمة، ومبشراً بعصر النهضة، فقد هاجر العلماء الأغريق منها إلى إيطاليا، وحملوا معهم مخطوطات نادرة لفلاسفة اليونان، ومن عجائب القدر أن استحدثت المطابع في ذلك الوقت فانتشرت المؤلفات القديمة بسرعة فائقة، وألفت أعمال أدبية جديدة، وخطا الفن خطوات فسيحة، وتقدمت العلوم لاكتشاف آفاق الفضاء ونواميس الطبيعة.

ومن أعلام هذه الحقبة التاريخية:

١ ـ مرسيليو فتشينو (١٤٣٢ ـ ١٤٩٩):

نقل إلى اللاتينية تاسوعات أفلوطين، وشرح فلسفة أفلاطون في كتاب سماه «الإلهيات الأفلاطونية في خلود النفس» وقال في مقدمته: (إن الحاجة ماسة إلى دين فلسفي، يستمع إليه الفلاسفة بقبول وقد يقتنعون به).

على أن أهمية فتشينو قائمة في تعريف الغربيين بكتب أفلاطون وأفلوطين. وقد طبعت كتبه مراراً بباريس خلال القرن السادس عشر، وكانت مصدر العلم بالفيلسوفين[1].

٢ ـ ليوناردو دافتشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩)

«اشتغل بالتصوير والنحت والموسيقى، فكان فناناً عظيماً، وتبحر في التشريع والمعمار والميكانيكا فكان عالماً مبرزاً، واستخلص من أبحاثه

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم ص ١٢.

أصول المنهج العلمي، ومن مشاهداته للناس عوامل سيرتهم فكان فيلسوفاً مذكوراً»[1].

٣ - ميشيل دي مونتاني (١٥٣٢ - ١٥٩٢)

أشهر الشكاك في القرن السادس عشر، درس الإنسان من خلال نفسه هو، وأشهر كتبه «المحاولات» وهي مقالات متنوعة فيها نقد لاذع، وتهكم ساخر لأفكار فلسفية وأدبية واجتماعية كثيرة.

٤ - جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢)

أول من استخدم المنظار لدراسة الأجرام السماوية، واكتشف مجموعة من الكواكب متمثلاً منهج «كوبرنيك»، «برونو» في استجلاء حقيقة الكون رغم أنف الكنيسة. ومعلناً أخطاء بطليموس وأرسطو، وقد صرح أحد الفلاسفة بأن مكان هذا العبقري من الفلسفة الحديثة هو فوق عتبتها[2].

وبعد فإن النهضة ما كانت إلاّ لتحرير مجتمع من أغلاله، ولإعلاء صرح مجتمع جديد ينشط عقله ويسبح خياله وتتسع أرجاء الكون حوله، أفلا يساهم فلاسفة الزمان في تقديم النماذج لتصور ذلك المجتمع الجديد؟! فإلى الفصل التالي.

* * *

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم ١٧.

(٢) المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة د. محمد غلاب ص ٤٥.